المرأة الشاعرة

Imaginative Woman

للقصصي الانجليزي توماس هاردي

بقلم الأديب نظمي خليل

انتهى « وليم مارشمل » من البحث عن مسكنه الصيفي في إقليم « سولنتس » في جنوب « ويسكس » ثم عاد إلى الفندق حيث كانت زوجه وأطفاله في انتظاره بعد أن قضوا سحابة اليوم في اللهو واللعب . وكانت الأم منصرفة إلى قراءة الشعر كعادتها ، فلم تكد تراه حتى ألقت بالكتاب جانبا وأفاقت من ذلك الحلم الجميل الذي كانت غارقة فيه وقالت : إني أود أن تكون قد وفقت هذه المرة إلى منزل ملائم فقد ضقت ذرعا من طول مكثنا في هذا الفندق . فأجابها زوجها : إن المدينة مزدحمة والغرف ضيقة وأخشى ألا نجد فيها ما نريد . هل لك أن تصحبيني إلى ذلك المنزل الذي رأيته اليوم ؟ ثم خرجا معا تاركين أطفالهما الثلاثة في رعاية المربية

لقد كان هذان الزوجان مختلفين في المزاج والمشرب ، فقد قضى الزوج حياته في صناعة الأسلحة ونشأ في جو صناعي بحت ، بعيداً عن جو العاطفة والخيال الذي عاشت فيه زوجه الشاعرة ، فلم يكن غريباً من امرأة رقيقة خيالية مثل « إلا » أن ترتاح إلى أعمال رجل مثل « مارشمل » . إنها ليست عدوة للشعر فحسب ، بل وللحياة أيضاً . فكانت إذا ما خلت إلى نفسها تفكر في ذلك الزوج وفي ثروته الطائلة ، وفي قيمة هذه الثروة لها . وكانت في كل مرة تعود بعد ذلك التفكير الطويل بالألم والاشفاق على هذا الزوج الذي لم يعرف قط ذلك الجو الشعري الجميل ، جو العواطف والخيال الذي كانت تطلق فيه مشاعرها المكبوتة وأحلامها العذبة تحلق في ساعات خلوتها وهدوئها

سار الزوجان حتى أتيا منزلاً صغيراً يشرف على البحر ، وقد أحيط بحديقة شجراء فينانة ؛ فاستقبلتهما صاحبة المنزل وأخذت تحدثهما عن ظروفها السيئة وعن موت زوجها المفاجئ ، وعن وسائل الراحة التي تمدها لكل من يقيم في منزلها . فأعجبت مسز مارشمل بالمنزل ، ولكنها أرادت استئجار كل الغرف ، فخاب أمل المرأة في كسب هؤلاء الضيوف ، إذ كان هناك غرفتان يشغلهما شاب رقيق الجانب طيب القلب كريم الخلق لا تود أن يتركها ، ولكنها تمتمت قائلة : لا بأس ! ربما يخلي لكما هاتين الغرفتين بضعة أسابيع . وقبل أن يفرغ الضيفان من تناول الشاي أخبرتهما السيدة أن صاحبها الشاب قد رضي أن يخلي لهما الغرفتين مدة ثلاثة أسابيع . فقال السيد مارشمل :

« إنه شاب كريم حقاً ، ولكننا لا نريد أن نزعجه في مسكنه »

فأجابته صاحبة المنزل قائلة : لا إزعاج ولا إقلاق فهو شاب غريب الأطوار تراه دائماً حالماً مطرقاً حزيناً يحب الوحدة ويتعشق الهدوء ، وهو يحرص على البقاء هنا فى فصل الربيع الباسم حيث لا أنيس له إلا البحر ؛ أما الآن فأنه ذاهب إلى إحدى الجزر القريبة كما يفعل كل عام تبديلاً للهواء . وفى اليوم التالى كانت أسرة السيد مارشمل تقيم فى ذلك المنزل الجديد . ثم مضى الرجل إلى البحر يرتاض على شاطئه الجميل ، وانصرف الأطفال إلى اللعب فى الخلاء ، وبقيت « إلا » وحيدة تلهو بما عسى أن تجده من كتب وآثار فى غرفة ذلك الشاب . فقد رأت رفوفاً من الكتب الغريبة النادرة قد تكدس بعضها فوق بعض فى نظام خاص يدل على أن صاحبها لم يفكر قط فى أن يداً غريبة ستمتد إليها . فقالت :

سأتخذ هذه الغرفة لنفسى إذ يظهر لى أن صاحبها مغرم باقتناء الكتب . هل يمكننى أن أقرأ بعضاً منها يا مسز هوبر ؟

— نعم ، إنه أديب ناشىء وشاعر واعد ، له دخل يسير يكفيه تكاليف الحياة ، ولكنه لا يشق له طريقاً فى المجتمع

— أهو شاعر حقاً ؟ لم أعرف هذا قبل الآن . ثم تناولت كتاباً فرأت اسمه فى الصفحة الأولى فصاحت متعجبة : « يا للمصادفة ! إنى أعرف اسمه حق المعرفة : « روبرت ترو » كذلك أعرف أشعاره . أهذه هى غرفته ؟ وهل هو حقاً الذى أخرجناه منها ؟

ثم أخذت تفكر فى ذلك الاتفاق الغريب . لقد كان والدها أحد رجال الأدب البارزين فنظمت فى الأيام الأخيرة بعض القصائد أودعتها عواطفها الحزينة وأسفها على تلك الحياة الأولى ، حياة الحلم والزهر ؛ حياة المرح والشباب التى ضاعت جميعها فى ذلك الجو المكتئب المكفهر الذى أصبحت تشعر فيه أنها آلة للنسل وأداة للتسلية

وتشاء الظروف أن يقترن اسم هذه السيدة باسم هذا الشاعر الشاب فى إحدى المجلات الكبرى عقب فاجعة مؤلمة اهتزت لها عواطفها الشاعرة فأوحت إليهما فى وقت واحد بقصيدتين متحدتين فى الروح والعاطفة كأنهما فاضتا من نبع واحد ، حتى أن مدير المجلة قد نشرهما فى صفحة واحدة متعجباً لذلك الاتفاق الغريب

ومنذ ذلك الوقت أخذت « إلا » أو « جون إيفى » كما كانت تسمى نفسها تهتم بكل ما ينشر فى الصحف بامضاء روبرت ترو . لقد اتخذت ذلك الاسم لترضى رغبة كامنة فى نفسها ، وحتى لا يرتاب الناس فى صدق إيحاءاتها إذا علموا أن هذه العواطف الجياشة والمشاعر القوية تفيض من قلب امرأة عادية هى زوج لأحد تجار الأسلحة وأم لثلاثة أطفال .

أما أشعار روبرت ترو فلم تكن تحمل طابع الشعر الحديث ، بل كانت فرجة لقلب مكلوم بائس قد ضاق بالحياة أو ضاقت هى به فلم يعد يميز فيها بين أخس الطبائع البشرية وبين أرقاها . فكانت تلك السيدة إذا ما قرأت أشعاره تشعر بخيبة أليمة تحز فى نفسها لأنها لا تستطيع أن تحلق فى ذلك الجو السامى الذى يضرب فيه بجناحيه القويين .

ثم مضت بضعة أشهر نشر خلالها روبرت أول دواوينه الشعرية فكان باكورة طيبة استقبلها الشعب بشىء من التقدير مكنه من أن يكسب نفقات الطبع ، فأغرى هذا النجاح المتواضع جون إيفى على أن تجمع مقطوعاتها الشعرية المتناثرة فى كتاب واحد مؤملة فى أن تصادف بعض ما ظفر

به روبرت من الاقبال والتشجيع ، ولكنها عادت بصفقة المغبون ، فلم يتصد أحد لكتابها بالنقد أو التقريظ ، بل لم يفكر أحد أن يعلق عليه أو أن يشير إليه ولو فى إحدى الصحف اليومية .

ولكنها لم تفكر كثيراً فيما أصابها ، فسرعان ما حطت بها أفكارها من عالم الشعر والأدب الى عالم الحياة والمنزل ، فقد أحست بجنين يضطرب فى أحشائها فانصرفت عن الأدب وتأهبت لاستقبال ذلك الضيف الجديد .

جالت هذه الأفكار فى خاطر تلك المرأة التى وجدت نفسها أخيراً وعلى غير انتظار فى غرفة ذلك الشاب الذى ارتبطت به برباط روحى وثيق ، فنهضت عن كرسيها وأخذت تجول فى أنحاء الغرفة تتفرس فى كل ما تراه ، ثم دعت مسز هوبر تستفسر منها عن ذلك الشاعر الشاب فقالت :

— وهل يقيم هنا منذ زمن طويل ؟

— نعم . منذ عامين تقريباً وهو يحتفظ بهاتين الغرفتين حتى فى أيام سفره ، فان جو هذا المكان يلائم صدره . وهو يقضى وقته فى القراءة والكتابة لا يقابل أحداً ؛ وهو مع ذلك طيب القلب حلو الحديث يتمنى كل من يعرفه أن يصادقه . إنك لا تصادفين أمثال هذا الشاب كل يوم

— فى طيبة القلب ورقة الشاعر ! !

— نعم . حتى أننى كثيراً ما أغريه على الخروج من عزلته ، فيقوم برحلات قصيرة إلى باريس أو النرويج ، ثم يعود يشكرنى لأنه ذاق طعم السعادة بسببى

— إنه رقيق الاحساس لا شك

— أجل وإن بدا فى بعض الأحيان غريباً ، فقد حدث مرة بعد أن انتهى من نظم إحدى قصائده فى الهزيع الأخير من الليل أن ظل بقية الليلة يقطع الغرفة جيئة وذهوباً ، فأطار النوم من عينى ولكنى مع ذلك لم أضق به ولم أغضبه

كان هذا فاتحة الحديث عن ذلك الأديب الواعد الذى أخذ يصعد مدارج الشهرة فى وثبات واسعة موفقة .

وفى ذات يوم جاءتها صاحبة المنزل تلفت نظرها الى شىء لم تنتبه إليه وهو آثار للكتابة بالقلم الرصاص قد نقشت على ورق الحائط خلف الستائر بالقرب من مكان الرأس ، فلم تستطع مسز مارشمل أن تحبس شعور الدهشة والرغبة ، فاندفعت الى الغرفة ، وانحنت برأسها الجميل حتى كادت تلمس الجدار . ثم أخذت مسز هوبر تشرح لها فى أسلوب المرأة المتمكنة من علمها الواقفة على جميع ما يحيط بها فقالت :

إن هذه الكلمات هى خواطره الأولى التى تهفو بعقله وهو نائم فى فراشه ينقشها هنا خوفا من أن ينساها . لقد رأيت كثيراً من هذه الآثار منشورة بعد ذلك فى الصحف ولكن هذه الأشعار لم تنشر بعد

فاحمر وجهها دون أن تدرك السبب وشعرت برغبة قوية خفية فى أن تخلو الى نفسها . ولم تكد المرأة تنصرف الى قضاء حاجة لها حتى أسرعت مسز مارشمل الى غرفة الشاعر وأخذت تتلو هذه الأشعار فى صوت موسيقى جميل حتى سكرت أذناها وشالت بها أفكارها الى السموات العلى

كانت الطبيعة فى ذلك اليوم غاضبة ثائرة ، فلم يرد مستر مارشمل أن تصاحبه الى البحر الهائج المزبد . أما هى فقد أخذت تضيق بتلك الحياة الرتيبة الثابتة ، وتنفر من ذلك الجو المألوف الثقيل ، إذ لم يعد

ركوب البحر ولا السير مع الشاطىء متأبطة ذراع زوجها شيئاً بجانب تلك اللذة القوية التي أخذت تشعر بها كلما أوت الى غرفة ذلك الشاعر المجهول.

لقد قرأت أشعاره كلها فاستظهرتها، ثم حاولت أن تعارضها ولكنها عادت ودموع الفشل تترقرق فى عينيها . وهكذا عاشت تلك المرأة المسكينة مغمورة بتلك المشاعر المذبة التي أوحت بها اليها غرفة ذلك الشاب الذى لم تره قط

لم يعد قلب تلك المرأة يغني على أوتار الحب الأول ، ولم يعد زوجها ينظر اليها أكثر من رفيق أو صديق ، ولكن قلبها كان لايزال عامرا بالحب ، جياشاً بالعواطف التي تتطلب غذاء وإلا ذبلت وماتت . وأخيرا وجدت ذلك الغذاء فى ذلك الاتفاق الذى لم تكن تحلم به

عثر الأطفال يوما على بعض ملابس ذلك الشاعر فأسرعت مسز هوبر ووضعتها فى الصندوق كما كانت . أما الأم فقد شعرت بشيء غريب كتمته فى نفسها حتى تحين الفرصة ، وسرعان ما حانت ، فقد خرجت مسز هوبر إلى قضاء بعض حاجاتها ، وخرج الأطفال يلعبون كعادتهم كل يوم ، فأسرعت الأم الى الصندوق وأخرجت منه حلة جميلة فارتدتها ، ووضعت قبعته العالية فوق رأسها . ثم أخذت تخطر فى مشيتها تسأل نفسها : ألا توحى لى هذه الملابس بما أوحت اليه من روائع الفن ؟ لقد طالما خفق قلبه تحت هذه السترة ، وطالما تفتح ذهنه الجبار عن روائع الشعر وفوقه هذه القبعة ؟ ثم ما لبثت أن شعرت بضعفها بجانبه فمادت والدموع تكاد تطفر من عينيها ، ولكنها لم تكد تصل الى الصندوق حتى رأت زوجها أمامها فصاح : ما هذا الجنون ؟

فاحمر وجهها خجلا وأسرعت الى خلعها ، ثم قالت لقد رأيتها مصادفة هنا فارتديتها لأسرّى عن نفسى ألم الوحدة . ماذا أعمل مادمت بعيداً عنى دائما ؟ بعيداً دائما ؟ حسن ! . . .

فلما جاء الليل ذهبت الى مسز هوبر تغذى شعورها بالحديث عن ذلك الشاعر البعيد . فقالت صاحبة المنزل : إنك تلذين كثيرا لسماع قصته . لقد أرسل إلىّ خطابا اليوم يخبرنى أنه سيأتى غدا لحاجته الى بعض الكتب

— هل يمكننى أن أبقى هنا عند مجيئه ؟

— نعم يمكنك أن تقابليه إذا أردت ذلك

فشعرت بارتياح خفىّ عند سماعها هذا الكلام ومضت الى فراشها تفكر فى هذا اللقاء المرقوب

وفى صباح اليوم التالى قال لها زوجها : لقد كنت أفكر يا (إلا) فيما حدثتنى عنه من أنى أتركك وحيدة دون أنيس . قد تكونين على حق فى هذا ، ولكن الجو اليوم صحو ، والبحر رهو ، والنسيم رخو ، فهل لك أن تصحبينى الى نزهة قصيرة ؟ ولأول مرة شعرت (إلاّ) بعدم رغبتها فى تلبية هذا الطلب ، ولكنها لم تعلن رفضها . ثم اقتربت ساعة الخروج فأخذت تستعد لها ، ولكنها ما لبثت أن توقفت عن المضى فى اللبس ، فان الرغبة فى لقاء ذلك الشاعر المجهول كانت قد جرفت بعيداً سائر الرغبات الأخرى ، فقالت فى نفسها : (إنى لا أستطيع الخروج الآن) وأخبرت زوجها بذلك ، فمضى وحده

كان المنزل هادئاً فى ذلك اليوم ، فقد خرج الأطفال الى الخلاء يلعبون ويمرحون ولم تعد تسمع إلا صوت أمواج البحر تداعب الشاطىء فرحة بذلك اليوم المشمس الجميل . لقد سمعت الباب يقرع ولكنها لم تر أحدا ، فلما نفد صبرها نادت مسز

هوبر وسألتها عن الطارق ، فأجابتها : إنه أحد الأشخاص يسأل عن سكن . لقد نسيت أن أخبرك أن روبرت قد اعتذر عن المجيء اليوم لعدم حاجته القوية الى الكتب . فران الحزن على قلب (إلاّ) وبقيت وقتاً طويلا نهباً لشتى الانفعالات حتى أنها لم تستطع أن تقرأ أغنيته الحزينة : (الأرواح العديدة) إذ كان الحزن قد جفف ينابيع فرحها

— مسز هوبر . هل لديك صورة لـ . . . ذلك الشاب الذى يقطن هنا ؟

وكان الخجل قد عقد لسانها عن ذكر اسمه

— لماذا ؟ نعم . فى داخل ذلك الأطار الجميل المعلق فى غرفتك

— ليس هنا إلا صورة للدوق والدوقة

— نعم . إنها فى داخل ذلك الاطار نفسه . لقد اشتريته خصيصاً لصورته ولكنه جاءنى قبل السفر وقال : « إخفى صورتى عن أعين هؤلاء الغرباء الذين سيقيمون هنا فانى لا أود أن يتطلعوا إلى صورتى » ولذلك أخفيت صورته مؤقتاً تحت صورة الدوق . عكنك أن تريها إذا أردت فانه لا يغضب ؛ فلو أنه عرف أن الشخص الذى سيقيم فى غرفته امرأة جميلة جذابة مثلك لكان حرياً ألا يفكر فى إخفاء صورته

— وهل هو رشيق ؟

— إنه رشيق فى نظرى وإن لم يبد كذلك فى نظر بعض الناس . ولكنى أعتقد أنه شخص قوى يأسر كل من يراه ، فى عينيه بريق الذكاء ، وفى بدنه روح العبقرى الثائر

— كم يبلغ من العمر ؟

— إنه يكبرك بسبع سنوات . أى أنه حوالى الثانية والثلاثين

والحقيقة أن (إلا) كانت فوق الثلاثين وإن لم تظهر كذلك . لقد كانت قادمة على تلك المرحلة التى تعتقد فيها المرأة أن الحب الأخير أقوى من الحب الأول . وفى تلك اللحظة جاءها نبأ من زوجها يخبرها أنه سيقضى ليلته فى نزهة بحرية مع بعض أصدقائه . فقامت إلى المائدة وتناولت العشاء مع أطفالها ثم أمضوا جميعاً وقتاً على الشاطىء وهى لا تفكر إلا فى تلك الصورة المختبئة وكأنها تتوقع أمراً مخيفاً

ثم عادت إلى المنزل ذاهلة عن نفسها ولكنها لم تجرؤ على إخراج الصورة حتى نام الأطفال وشعرت بالوحدة والهدوء . ولكنها بالرغم من ذلك لم تستطع أن تدنو من الصورة حتى ترضى تلك الرغبة الدفينة فى نفسها ، فارتدت أفخر ثيابها وقامت إلى الأطار وأخرجت منه الصورة ووضعتها أمامها على المكتب . لقد كانت صورة قوية رائعة ، وكان الشاعر لابساً قبعة عالية تلقى ظلالاً رقيقة على جبينه . أما العينان اللتان وصفتهما صاحبة المنزل فقد كانتا تشعان ألماً وبؤساً

نظرت إلى الصورة طويلاً ثم تمتمت فى صوت هادىء رقيق : « وهل أنت الذى كشف نوره القوى نورى هذه المدة الطويلة ؟ » ثم غابت فى تفكير عميق حتى اغرورقت عيناها بالدموع ، ولمست شفتاها الصورة ، ثم مالبثت أن ضحكت ضحكة عصبية ومسحت الدموع من مآقيها ، وأخذت تفكر فى نفسها كيف أن امرأة هى زوج لرجل وأم لأطفال ثلاثة تسمح لنفسها أن تنظر إلى شخص غريب فى مثل هذه الحالة المريبة ؟

لا . إنه لم يكن غريباً . لقد عرفت أفكاره وعواطفه كما عرفت أفكارها وعواطفها ، فقد كانت نفس العواطف والأفكار التى كان يضطرب بها قلبها

والتى تفقدتها فى زوجها فلم تجدها . « إنه أقرب الناس إلى نفسى وإن لم تقع عليه عينى » . ثم ألقت بالكتاب والصورة على منضدة صغيرة بجانب السرير وأخذت تستعيد بعض أشعاره الوجدانية ثم ما لبثت أن أمسكت الصورة فى يدها وأخذت تنظر فيها وهى نائمة ، ثم التفتت إلى الأشعار المكتوبة بالقلم الرصاص على الحائط . لقد كانت جملا وسطوراً كأنها مذكرات « شيلى » . ثم شعرت أن أنفاسه الحارة القوية تصافح خديها وكأنها منبعثة من تلك الجدران التى طالما أحاطت رأسه كما تحيط رأسها الآن

لا بد أن يكون قد وضع يده هكذا وهو يمسك بالقلم . نعم . إن الكتابة مائلة مما يدل على أن الكاتب قد مد ذراعه هكذا . « إن الصور أكثر حقيقة من الانسان فهى غذاء الأبدية » هذه هى الأفكار التى خطرت فى ذهنه فى سكون الليل العميق عندما انطلقت روحه فى سماء الفكر لا تخشى نقداً ولا تهاب إنساناً ؛ ولا شك أن هذه الكلمات قد كتبها فى عجلة على ضوء القمر الخافت أو نور المصباح الخابى أو بصيص الفجر الأدكن . ثم تدلى شعرها حيث كان يضع ذراعه وهو يسجل تلك الأفكار الشاردة

لقد كانت نائمة على شفتى الشاعر محاولة أن تتقمص روحه وتشم أنفاسه خلال ذرات الأثير

وبينما هى غارقة فى بحار هذه التأملات العذبة اللذيذة إذ سمعت وقع أقدام على السلم فلم تكد تصحو من أحلامها حتى رأت زوجها أمامها يقول : معذرة ، هل بك صداع ؟ أخشى أن أكون قد أزعجتك

فأخفت الصورة فى حركة غريزية سريعة وقالت : مابى من صداع . كيف جئت الآن ؟

فقال : خفت أن أتأخر الى الغد الذى أعددت له برنامجا آخر . لقد تعبت اليوم ولكنى مضطر أن استيقظ الساعة السادسة . سوف لاأوقظك . فرفعت اليه عينيها بينما كانت يدها تمعن فى إخفاء الصورة تحت الوسادة . فانحنى عليها وقال : أحقاً است مريضة ؟

— كلا . ولكنى كاسفة البال فقط

— لابأس

ثم انحنى عليها ثانية وطبع فوق جبينها قبلة

وفى الساعة السادسة استيقظ مارشمل وهو يتثاءب ويتمتم بهذه الكلمات : لست أدرى أى شىء كان يحتى هذه الليلة

فرفعت (إلا) عينيها فرأت صورة روبرت فى يده

— حسن . لقد قضى على

— أمستيقظة أنت أم نائمة ؟

— ماذا تعنى ؟

— أرى صورة هنا

— أظنها لأحد أصدقاء صاحبة المنزل

— إنى أعجب كيف جاءت هنا

— لقد رأيتها أمس فرعا وقعت من يدى هنا

— إنه صديقك إذن

— إنه رجل ذكى وشاعر واعد وهو الذى يقطن هاتين الغرفتين ولكنى لم أره

— كيف عرفت هذا ما دمت لم تريه ؟

— مسز هوبر أخبرتنى ذلك عندما أعطتنى هذه الصورة

— حسن . يجب أن أتركك الآن . إنى لا أستطيع أن أصحبك معى . راقبى الأطفال جيداً حتى لا يبعدوا كثيراً عن المنزل

وما كاد مستر مارشمل يترك المنزل حتى أسرعت زوجته إلى مسز هوبر تسألها عن موعد حضور

روبرت . فعلمت منها أنه سيأتى فى نهاية الأسبوع

ثم عاد مارشمل قبـل الغروب وأخذ يقرأ الرسائل التى جاءته أخيراً ، وفجأة قرر الرحيل بعد ثلاثة أيام

— ألا يمكننا أن نبقى هنا أسبوعاً آخر ؟ إنى أحب هذا المكان

— ولـكنى لا أجد فيه ما يغرى بالبقاء

— إذن أبقى أنا والأطفال

وما الفائدة ؟ إنى مضطر إلى العودة ثانية لأصحبكم إلى المنزل . وعلى كل فلديك ثلاثة أيام أخرى

ولـكن « إلا » رأت أنهـا مقضى عليها إذا لم تر روبرت ، فبذلت آخر جهدها فعلمت أن الشاعر يقيم فى إحدى الجزر القريبة منها فذهبت إليها ولـكنها لم تستطع أن تهتدى إليه ، فعادت كاسـفة البال مهمومة النفس وقد أصبحت الدنيا فى نظرها أضيق من كفة الحابل

ولـكن السرور ما لبث أن انبعث فى قلبها فأثار جوانبه القاتمة . فقد عاد زوجها وغـير رأيه وسمح لها بالبقاء حتى نهاية الأسبوع

ولـكن الأسبوع قد مضى وروبرت لم يأت .

وفى صبيحة يوم السبت ، كانت مسز مارشمل وأولادها فى طريقهم إلى المحطة . لقد كان الطريق مقفراً ثقيلاً والجو خانقاً مكتئباً يبعث الضيق والضجر ولـكنها بقيت بالرغم من ذلك تنظر إلى البحر وإلى الجزر المتناثرة فيه حتى غابت جميعها عن عينيها ، فأخذ قلبها المثقل المهموم يتلهف إلى حيث يقيم الحبيب . عادت إلى منزل زوجها الريفى الجميل جسما بدون قلب كأنها قبر متحرك . وأخيراً كتبت إلى روبرت تبثه إعجابها وتسأله رأيه فى بعض مقطوعاتها الشعرية التى أرسلتها إليه ، ثم انتظرت الرد ، فسرعان ماجاءها بما كانت تخشاه ، إذ جاءها خطاب مقتضب يذكر فيه أنه وإن لم يقرأ هذا الاسم «جون إيفى» من قبل فسيعنى بكل ما تنشره بعد ذلك . وبالرغم من هذا فقد رأت إلا فى هذا الخطاب القصير معنى آخر ، فقد كتب إليها روبرت بنفسه وفى تلك الغرفة التى كانت تجلس فيها

ثم أخذت ترسل إليه من حين إلى آخر بأجود ماتسمح به قريحتها الفياضة لتسأله رأيه فيه ، ولـكنها لم تتلق منه رأياً ، فعزت هذا الى أن روبرت يكتب اليها ظاناً أنها أحد منافسيه من جنسه

لقد كان روبرت صديقاً حميماً لصاحب إحدى المجلات الأسبوعية الـكبرى ، وكان ذلك الناشر صديقاً مخلصاً لزوجها فكتبت إليه تدعوه لزيارتها وأن يصحب معه صديقه روبرت

كان الشتاء قد انتهى وانقطع المطر ، وأخذت الأزهار تتفتح ، والطيور تشدو فوق الأشجار ، واتشحت الأرض برداء الربيع

وفى اليوم الموعود فى الساعة الخامسة سمعت قرعاً بالباب فهرولت إليه ولـكن هالها أن وجدت صاحب المجلة واقفاً وحده فسألته :

— أين روبرت ؟

فأجابها : إنى آسف كثيراً لعدم مجىء روبرت . إنه غريب الأطوار كما تعرفين . لقد وعدنى أنه سيحضر ثم عاد فاعتذر

— وعلى ذلك فهو لا يأتى اليوم

— نعم وقد أوصانى أن أعتذر إليك

— متى تركته ؟

— الآن على باب منزلك

— ماذا ؟ وهل مر بمنزلى ؟ !

لقد تحدثنا معاً بالباب ثم انصرف وهو فى حالة نفسية غريبة . فقد أخرجه عن نفسه مقال نشرته

إحدى صحف المساء ، نال فيه كاتبه منه كثيراً ، وبما قرأته

— لا . إنه ليس جديراً بالتفكير فيه . فهو كغيره من مئات المقالات التى ينشرها أصحاب العقول القدعة الضيقة . إن موطن الضعف فى روبرت أنه يهتم كثيرا بما يكتب عنه . . . ولكن كان واجبا عليه أن يعرف أن هناك من يعطف عليه ويعجب به

— نعم . نعم . لقد وصلته عدة رسائل من إيفى

— أيحب إيفى ؟ هل قال هذا ؟

— إنى لا أعتقد أنه أعجب به يوما

— ولا بشعره ؟

— لا ! .

وأخيرا أيقنت تلك المرأة المسكينة أن شعرها لم يستطع أن يرضى معبودها العظيم فذهبت إلى حيث ينام أطفالها وهجمت عليهم تشبعهم لثما وضما

أما الناشر فقد أدرك أنها لم ترد بدعوته إلا لقاء صاحبه ، فانصرف . وفى اليوم التالى نشرت إحدى صحف الصباح الخبر الآتى :

انتحار شاعر

انتحر مستر روبرت ترو الذى عرفه الجمهور منذ سنوات شاعرا مطبوعاً ، وأديبا موهوبا فى منزله فى سولنتس بطلق نارى . إن الجمهور ليس فى حاجة الى تذكيره بديوانه الشعرى « أغانى المرأة المجهولة » الذى نشره فى العام الفائت ، والذى أثار ضجة كبيرة فى الأوساط الأدبية

انتحر عقب قراءته مقالاً عنيفا تناوله فيه كاتبه بالنقد والتجريح ، ثم نشر هذا الخطاب الذى كان قد أعده لأحد أصدقائه وهو :

« عزيزى : قبل أن يصلك خطابى هذا أكون قد وضعت نهاية لتلك الضجة التى ثارت حولى . لن أثقل عليك بسرد الأسباب التى حملتنى على هذا ، ولكنى أؤكد لك أنها وجيهة مقنعة . ربما لو كانت لى أم أو أخت أو صديقة لما فكرت فى أن أقطع مجرى حياتى هكذا . لقد طالما حلمت بتلك المخلوقة المنشودة التى استوحيتها ديوانى الأخير ، ولكن هذا الحلم لم يتحقق ؛ وأرى لزاماً على أن أذكر ذلك حتى لا أحرج أية امرأة قد يظن أنها السبب فى هذه المأساة »

* * *

قرأت (إلا) هذا الخطاب وهى فى ذهول عن نفسها ثم أسرعت إلى فراشها وانكفأت على وجهها تبكى وتنتحب ثم أخذت تتمتم : « أواه لو عرفنى قبل ذلك ، أو لو قابلته مرة واحدة ! لو أمررت يدى على جبينه الساخن ثم قبلته ، إذن لكنت أذيقه طعم الحب وأشعره بالحياة ، ولكنت أريه استعدادى للتضحية من أجله ، ولكن القدر لم يهيء لى هذا ولم يتح لى أن أنعم فى جنته

ثم قامت لساعتها وكتبت إلى صاحبة المنزل تطلب خصلة من شعر رأسه ، وسرعان ما جاءها الرد يحمل خصلة الشعر ومكان المقبرة

وفى أحد الأيام لاحظ زوجها أنها تخفى شيئاً فى صدرها فصاح : ما هذا . أخصلة شعر ؟

فتمتمت قائلة : لقد مات

— من ؟

— لا أذكر اسمه

— حسن . ثم مضى الى عمله حيث اتفق أن قرأ خبر انتحار ذلك الشاعر . وسرعان ما تذكر

حديث زوجه عنه والصورة وخصلة الشعر أيضاً .
وفى أحد الأيام هبت (إلا) مضطربة مهمومة فكتبت ورقة صغيرة الى زوجها تخبره أنها ذاهبة الى مكان بعيد قد يستغرق منها يوماً ، ثم انطلقت كالريح الى المقبرة . فلما جاء زوجها همست فى أذنه الخادمة أن سيدتها لم تكن فى حالة هادئة فى الأيام الأخيرة ، وأنها تخشى أن تكون قد انتحرت ، ولكن الزوج كان عارفا بمكانها ، فأسرع تواً إلى المقبرة وهناك فى غسق الليل أخذ يتلمس طريقه عله يرى شبح زوجه ، وأخيراً لمح بصيصاً من النور يشع من بعيد ، فسار اليه وسط أكوام من الصخور والرجام فرأى زوجه حانية فوق القبر فقال :

ماهذا ؟ أتتركين أطفالك وتأتين هذا الطيش ؟ إنى لا أغار من هذا التعس فقد أنهى الموت ما بينى وبينه . ثم أمسك بذراعها وخرج بها من المقبرة حيث أخذ أول قطار دون أن تنطق الزوجة ببنت شفة

مضت على هذه الحادثة بضعة شهور ولم يجرؤ أحد أن يكلم الآخر

أما إلا فقد كانت علتها تزداد سوءاً بعد سوء حتى جاء يوم المخاض فقالت :

— إنى لا أعتقد أنى سأنجو هذه المرة

— فقال زوجها : أوه . ما هذا العبث ، لماذا لا تكون هذه المرة كسابقاتها ؟ فقالت :

— إنى أشعر أنى سأموت ، وسأترك فراغاً فى قلوب أبنائى . فقال :

— وأنا ؟ فقالت :

— إنك ستجد من يخلفنى . فقال :

— ألا تزالين تفكرين فى صديقك الشاعر ؟

فلم تجبه

ولم يمض على هذا الحديث ستة أسابيع حتى كانت (إلا) ملقاة فى فراشها لا تستطيع حراكا . وقد ذبل جسمها وجفت ينابيع الحياة فيها . وفى الساعة الأخيرة قالت : « وليم . إنى أريد أن أعترف لك بكل شىء . إنك تعرف تاريخ زيارتنا لسولنتس ، لا أستطيع أن أخبرك كيف نسيتك ، ولكنى كنت فى حالة سيئة ، لقد ظننتك دونى كفاءة وعقلاً بينما كان فوق قوة وذكاء . فأردت أن أبحث عن شخص يفهمنى ...

ولكنها لم تستطع أن تزيد حرفاً على هذا فانتفضت انتفاضة سريعة كانت القاضية

لم يكن الزوج كغيره من الأزواج سريع الغيرة كثير الشك فلم يحاول قط أن يدفعها إلى الاعتراف بعلاقتها برجل مات

وفى نهاية العام الثانى بعد هذه الحادثة بينما كان مستر مارشمل يبحث عن أوراق زوجه ليحرقها قبل أن يقترن بزوجه الثانية رأى خصلة الشعر ، وصورة الشاعر ، وخطاب صاحبة المنزل ، وقد كتب عليه التاريخ بخط زوجته . فنهض مسرعاً وأحضر ابنه الصغير الذى كان السبب فى وفاة أمه ووضعه على ركبتيه ، وأمسك بخصلة الشعر وأخذ يقارنها بشعر الطفل ، ثم وضع الصورة على المنضدة وأخذ يفحصها ويقارن بينها وبين قسمات وجه الطفل ، وكأن الطبيعة الماكرة قد شاءت أن تجعل الشبه قوياً . فصاح :

تعساً لى . لقد خانتنى فى هذا الطفل . دعنى أرى التاريخ : الأسبوع الأول من أغسطس ... الثالث من مايو ... نعم ... نعم ... وأخيراً صاح : اذهب أيها الحيوان إنك لا تنتسب إلىّ !

نظمى خليل